«أما كان يجب على المسيح أن يعاني تلك الآلام كي يعاين مجده».

(لوقا 24: 26)

«يجب علينا أن ندخل مضايق كثيرة كي ندخل ملكوت الله».

(أعمال الرسل 14: 22)

«إننا لا نهدف إلى ما يُرى بل إلى ما لا يُرى».

(2قورنثوس 4: 18)

«مثل العشّار أتنهّد، مثل الزانية أذرف الدموع، مثل اللّص أصرخ، مثل الابن الخليع أتوسّل إليك. أيها المسيح مخلّصي ومحب البشر، قوّ نفسي التي ضعفت، التي شُلَّت بسمّ المسرّات...أنتظر الرجاء في التوبة».

(القدّيس افرام السوري، «المزامير الروحية»، ترجمة د. عدنان طرابلسي)

«ويصبح الألم نفسه مصدرًا لتفتّق الخلق وفوهةً تدفق للنور...الإنسان يعرف أن الله ينعطف عليه إذا بلغ الألم عنده كل مبلغ وأنه يفتقده في صميم المأساة وكأن الله يتمزّق فيه ويئن...الفداء ممكن لكل نفس إذا صبرت...صبر المحبين الذين يرون في الألم التفاتة من ربهم»

(المطران جورج (خضر)، «حديث الأحد»، الجزء الثالث، منشورات النور، 1986)

«منذ شبابي آلام كثيرة تحاربني، لكن أنت يا مخلّصي عاضدي وناصري»

الألم، هل هو ذاك الوجع الذي يلمّ بالجسد فينوء تحت وطأته ويفقد بذلك الإنسان تكامله وتوازنه؟ أم أنه ذاك الذي يُصيب العقل لفقدان أحلام وأمنيات لم تتحقّق فيستسلم ذلك الإنسان للإحباط وتضعف عنده قدرة التحليل والتفكير المناسبَين لتجاوز المحنة؟ أو أنه يأتي من الروح، من عمق الذات التي غرقت في وحدة قاتلة بذهاب خليل، رفيق درب، صديق أو أهل فتنجرح الروح وتناجي وما من جواب، أو تتحسّر وليس من مؤازرة أو تربيتٍ على كتف أو دمعة سند؟ أم أنه ذلك الذي يدخل بسهمه القلب فيُصيب الحشى ويمزّقها وينقلب كيان الحب الجميل؟

هل الألم مصدرٌ للحزن فقط؟ أم أنه بإمكان الألم أن يكون مصدرًا للفرح أيضًا؟
ألم الجسد أنين خارجي بإمكانه أن يحبط الكيان، ولكن بعلاجه طبيًا يهدأ. مفعوله يعتمد على قوة الاحتمال وتأثير الدواء. أما الألم الداخلي فهو الذي يتسلّط على الشعور وينتاب المرء من الحسّ المفرط ومن شدّة التأثر. أسبابه كثيرة كرمل البحر، ومن الممكن أن يكون هو السبب لحالات نفسية كثيرة. فهناك مَن يتقوقع تحت وطأته ويدور في دوّامة لا خروج منها، وهناك مَن يكون الألم له وسيلة خلاص كالذهب الخالص المنقّى بالنار. الألم جزء لا يتجزأ من الإنسانية. إنه حيّ في بشريتها، في إنسانيتها المدعوّة إلى التألّه، والتي بالنعمة المُسبَغة عليها، تواقة إلى أن تصير على مثال الخالق القدير.

يمكن للألم أن يكون قبرًا لفريسته، ويمكنه أيضًا أن يكون مخاض ولادة جديدة لها. من أحرف كلمة أ-ل-م يُمكن لكلمة «**ألم**» أن تبقى ألمًا وأنينًا، ويمكنها أن تتحوَّل إلى «**أمل**». هذا التحوّل هو الاستنارة من معاثر الحياة والتغلّب عليها وقهرها فنحوّلها من مطبّات أليمة إلى وثبات فرح؛ نجعلها مطيّات إلى «الحياة» الذي «قهر الموت وأجازنا إلى الحياة الأبدية والرحمة العظمى». إن هذا لا يُبطل مفعول الوجع الوقتي والزمني وترسّباته ولا يُلغي الأنين والمشقّة وعدم الراحة، بل يهب قوةً من فوق ويساند المتألّم على التحمّل والمثابرة في الكفاح والخروج من المحنة.

منذ شبابي وأنا على موعد دائم مع الله والألم؛ فالله كان دائمًا حاملاً ألمي كصليب الجلجلة سائرًا بي إلى القيامة. ما كان إحساسي بالألم إلا شعورًا أنن تحت وطأته في لحظات ضعف ووهن الجسد. هذه الآلام

تمر الآن كذكرى لتلك المواعد التي تجلّت بها رحمة الله والتي بها أودعتُ نفسي وديعة لدى الوديع الأول والأخير الذي كان دائما وفيًا وعلى الوعد موعده. لقد كان دائمًا على الوعد يلقاني ويحمل آلامي ويستحمل أنيني وتأفّفي وقلّة صبري ويسامحني وينتشلني من هفواتي التي تفوق الإحصاء.

أما ألمي الأكبر، فكان وما زال، هو ألم الخطيئة. الألم الذي أشنّه على نفسي بملء إرادتي. إنه ألم فقدان الحسّ. ألم الأنانية، الجشع والطمع؛ ألم محبة الذات فقط؛ ألم البعد عن تعاليم الله والتمثّل والاقتداء به. إن الإنسان، من دون الحسّ الذي يتّصف به، يفقد ذاته وكيانه ويُصبح آلة باردة لا حياة فيها؛ يموت وهو بعد على قيد الحياة. فإن موعده مع الوعد لا يحين ولا يمتلئ الزمان لديه. إن محبة الذات تُفقد الحسّ بوجود الآخر، وبوجود الله أيضًا، وتجعل من هذا الآخر مطيّة للاستعمال وشيئًا للاستفادة منه فقط؛ وهي بذلك تُلغي دوره ككيان خُلق مثلي على شبه الله ومثاله. هذا الشعور يجعلني وحيدًا وهائمًا على وجهي، فإن اللقاء أساسه اثنان أو أكثر كي يُحدث تجاوبًا ولا يكون مجرّد صدىً أو ترددًا في وادٍ سحيقٍ مظلمٍ. فالعزلة هي العيش على عكس ما تتطلّبه المحبة من حركةٍ فاعلة وتجاوب لحميمية اللقاء بين الله الموجود دائمًا، المنتظِر كي يسكب نعمته ويمتدّ، وبين الإنسان الذي كان غائبًا وضالاً واقفًا كالسدّ أمام ذلك الانسكاب والانسياب المجّاني والامتداد الذي لا يُحَد بل يحترم رغبة وحرية الآخر، إلى أن يؤوب إلى واهب الرحمة طالبًا وواضعًا ذاته إناءً للغَرف من تلك النعمة كي يمتدّ وينسكب هو أيضًا في الخليقة.

إن ألم الخطيئة هو غير كل الآلام لأنه نابع من خيار شخصي؛ إنه ألم مسؤول ومضنٍ. إنه الاختيار في الابتعاد عن حياة الشركة مع الله والإنسان الآخر. إننا نطلبه بملء إرادتنا ولا نشعر بإثمه، بوجعه وبثقله، وهنا يكمن خطره. إن الشفاء منه والتحرّر من أوزاره هو فعل توبةٍ وندم ووعد بالالتزام بمناهج الله وتعاليم أبراره؛ هو الانغماس والنزول في جرن معمودية الدموع والتوبة.

أما الألم الذي يأتينا مصيبًا الجسد بالوجع أو مبتليًا الروح باليأس فيمكنه أن يكون طريقًا للفرح عندما نرى الله حاملاً وزره عنا. لكن أن نجعل الألم جزءًا من حياتنا بمشاركتنا الآخرين همومهم وأحزانهم وأمراضهم وأتعابهم فهذه هي قمة السعادة والفرح. لسنا هنا نعذّب أنفسنا بل نعيش في الآخرين وندعهم يعيشون فينا، ونرفع وزرهم كما حمل المسيح باختياره آلامنا وأوجاعنا وخطايانا. هذا هو الاختيار البديل لألم الخطيئة، إنه ألم المحبة؛ ألم الحسّ بالآخرين وإنهم جزء منا. ألسنا أعضاء في جسد واحد

الذي رأسه المسيح إلهنا ومخلصنا؟ هنا، الحياة في الدنيا تتطعّم بحياة الملكوت، حياة الشركة. كما أن المسيح هو العاضد والناصر، نصبح نحن بانسكابه فينا العاضد والناصر للآخرين.

ألم المحبة، الحب حتى بذل الذات، حب شفاعة، فنكون للآخرين وسطاء كي ينسكب الله ومحبته الثالوثية فيهم. إذ نحمل معهم آلامهم، فإن المسيح يريحنا ويريحهم. ألا يقول لنا «تعالوا إليّ أيها المتعَبون والثقيلو الأحمال وأنا أريحكم»؟